الآثار والحضارة الإسلامية بوادي فرغانه ومدن طريق الحرير

د. محمود رشدي سالم
مدرس بكلية الآثار - جامعة القاهرة

مقدمة :

لعب طريق الحرير دوراً هاماً في تلاقي الثقافات والشعوب وتيسير المبادلات بينها، وبخاصة أنه اضطر التجار إلى تعلم لغات وتقاليد البلدان التي سافروا عبرها، واستخدم الكثير من المسافرين هذه الطرق للدخول في عملية التبادل الفكري والثقافي التي كانت عامرة بالمدن الممتدة على طولها، وساهم التجار المسلمون الذين سلكوا المسالك المختلفة لطريق الحرير في التعريف بالإسلام ونشره.

ويعرف طريق الحرير قديماً بأنه شبكة طرق برية وبحرية بطول ١٢ ألف كيلومتر ربطت آسيا والشرق الأوسط وأوروبا لمئات السنين بروابط تجارية وثقافية ودينية وفلسفية تم من خلالها تبادل السلع والمنتجات، كالحرير، والعطور، والبخور، والتوابل وغيرها، وكذلك تبادل الثقافات والعلوم.

(خريطة رقم١) طريق الحرير قديماً من الصين شرقاً إلى أوروبا غرباً

وقطعت الصين خطوة مهمة على طريق تنفيذ مبادرة (الحزام والطريق للتعاون الدولي) التي تتضمن إعادة إحياء (طريق الحرير) التاريخي القديم عبر (طريق الحرير) الجديد الذي يربط ٦٧ دولة من آسيا إلى أفريقيا ومنها إلى أوروبا، هذه المبادرة تجسد الطموح الكبير للرئيس الصيني شي جينبينغ الذي كان وراء إطلاقها في عام ٢٠١٣ من خلال مشروع مبادرة "الحزام والطريق للتعاون الدولي"، وواصل منذ ذلك الوقت العمل على جمع الداعمين لها والراغبين في المشاركة في المشروع الضخم، الذي يرى معارضوه في الغرب، ولا سيما ألمانيا، أنه يهدف إلى هيمنة الصين اقتصاديا على العالم.

مبادرة (الحزام والطريق) التي عرفت عند إطلاقها عام ٢٠١٣ باسم (حزام واحد وطريق واحد) هي في الأساس استراتيجية تنموية ترتكز على التواصل والتعاون بين الدول، وخصوصا بين الصين ودول أورآسيا (آسيا وأوروبا)، من خلال فرعين رئيسيين، هما (حزام طريق الحرير الاقتصادي البري) و(طريق الحرير البحري)، حيث وافقت أكثر من ٥٠ دولة حتى الآن على مشورع طريق الحرير وعلى رأسهم مصر التي ستلعب دورا هاماً على طريق الحرير من خلال محور قناة السويس الذي يمثل نقطة التقاء هامه على طريق الحرير البحري مما سيرفع حجم التجارة بين مصر والصين من ١٢ مليار دولار عام ٢٠١٦ م إلى ١٥ مليار دولار مع انتهاء مشروع طريق الحرير والعمل به مما سينعش الإقتصاد المصري.

(خريطة رقم ٢) طريق الحرير حديثاً

وادي فرغانة على طريق الحرير

يقع وادي فرغانه على طريق الحرير الشمالي الذي يربط شرق آسيا وحوض تاريم وتركستان الغربية وتركستان الشرقية في الصين شرقا وبلاد ما بين النهرين والعديد من الأقاليم العربية والإسلامية غرباً، لذلك أصبح وادي فرغانة يمثل حلقة اتصال هامه بين أكبر قوة إقتصادية وثقافية في العالم شرقاً وهي الصين وبين الأقاليم العربية والإسلامية ومنها إلى أوروبا غرباً، كما أن دخول الإسلام إلى منطقة وادي فرغانه وفر لها الأمان والاستقرار حيث كان أول من وصل إلى أرض آسيا الوسطى هو الأحنف بن القيس عام ٢٢ هجرياً، تبعه العديد من الفتوحات، أهمها الفتح الإسلامي الحقيقي للمنطقة على يد قتية بن مسلم الباهلي في عهد الحجاج بن يوسف الثقافي في الفترة ٨٦ – ٩٦ هجرياً.

أصبح وادي فرغانه خاضعاً للحكم الإسلامي مما زاد من انتعاش طريق الحرير في جميع المجالات، ورغم المميزات التي وفرها طريق الحرير لوادي فرغانه إلى أنه كان بمثابة الثغرة التي دخل منها المغول للقضاء وادي فرغانه وقضوا فيها على الأخضر واليابس.

ويقع وادي فرغانه في ولاية كبيرة في التركستان الغربية كانت عاصمتها خوقند، وكانت تابعة لخانية خوقند قبل استيلاء الروس عليها، وهي الآن أهم مقاطعة في جمهورية أوزبكستان، تأخذ شكل مثلث قاعدته في الشرق ورأسه في الغرب يبلغ طوله ١٨٦ ميلاًوعرضه ٩٣ ميلاً وتبلغ مساحته ٨٤٠٤ ميلاً، تحيط به المرتفعات من ثلاثة جوانب الشمال مرتفعات تشاتكال shatkal ومن الشرق مرتفعات فرغانة ومرتفعات الآي alai، ومن الجنوب امتداد لمرتفعات تيان شان، وفي هذه المرتفعات التي تحيط بوادي فرغانة يتركز الكثير من الثروات المعدنية، وقد قسمت فرغانة في الوقت الحالي بين حدود ثلاث جمهوريات (أوزبكستان – قرغيزستان– طاجكستان).

يعتبر وادي فرغانة من أغنى المناطق الزراعية في إقليم نهر جيحون وسيحون، قامت الزراعة فيه منذ آلاف السنين، وكان أشهرها زراعة القطن، ومن

أهم المدن الواقعة على مجرى الأنهار التي تجري في وادي فرغانة (خوقند – نامنجان – فرغانة –لينين آباد) والتي تفتح فتحة وادي فرغانة في أقصى رأس المثلث، وقد ذكرت فرغانة في كثير من كتب الرحالة والجغرافيين عن حدودها ومدنها وطبيعتها وثروتها منها على سبيل المثال الحموي، والقزويني والهمذاني (المشهور بابن الفقيه) وأبى الفداء والأصطخري والمقدسي.

وتشتهر وادي فرغانة بكثير من الخيرات وافرة الغلات، وبها جبال ممتدة إلى بلاد الترك، وفيها من الأعناب والتفاح والجوز وسائر الفواكه والورد والبنفسج وغيرها، وفيها وفي أكثر بلاد ما وراء النهر الفستق المباح، بها من المعادن معدن الذهب والفضة والزئبق والحديد والنحاس والقبروزج والزاج، وبها جبل تحترق حجارته مثل الفحم يباع وإذا احترق يستعمل رماده في تبييض الثياب، كانت فرغانة مسقط رأس علماء أجلاء من بينهم أحمد بن كثير الفرغاني الذي يعرف لدى الأوربيون باسم Al – fraganalfraganios والذي عاش في عهد الخليفة المتوكل وهو الذي أنشأ مقياس النيل في مصر، والصوفي المعروف بأبي إسحاق إبراهيم، ومحمد بن إسماعيل الفارسي الفراغانى.

(خريطة رقم ٣) موقع وادي فرغانه على طريق الحرير في آسيا الوسطى

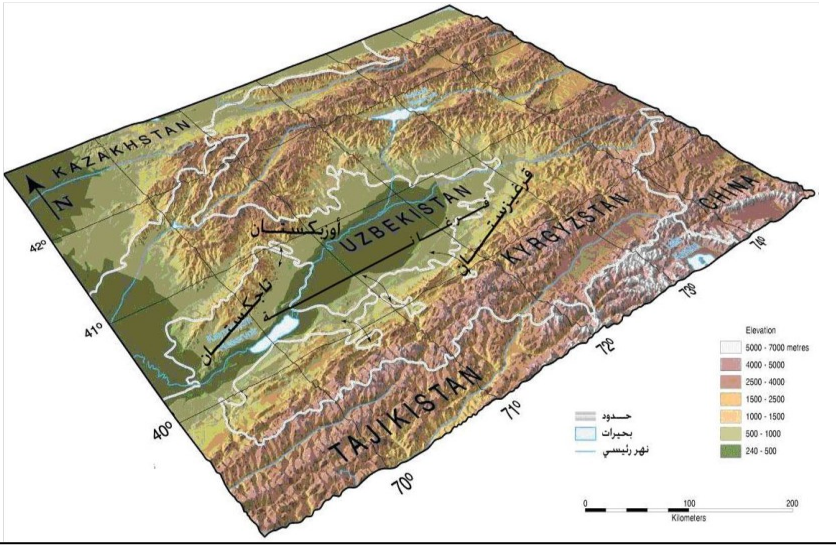

وبوادى فرغانة الكثير من الآثار منها؛ المسجد الجامع، ومدرسة مير نربوتـــه بيه، قصر خديار خان. وفيما لى بعض التفاصيل:

١- المسجد الجامع: يقع في شارع كيروف بمدينة خوقند في وادي فرغانة، أنشئ في عهد عمر خان عام (١٢٣٣هـــ / ١٨١٨م)، يعتبر المسجد الجامـــع مـــن المساجد الضخمة المميزة وهو المسجد الرئيسي لمدينة خوقند حيث يتوســـط المدينة تماما، وحوله تقوم معظم بيوتها ومنشآتها وأسواقها، يتكون من فناء مكشوف وبيت للصلاة جزء منه مغلق (المسجد الشتوي) والجزء الآخر مفتوح على الفناء (المسجد الصيفي)، وبوسط الفناء المكشوف للمسجد توجد مئذنـــة فتحت بها نوافذ تشبه طراز مآذن آسيا الوسطى (اسطوانية الشكل)، والتي لا تلتحم بالبناء بل تمتد مستقلة من الأرض.

تعرض المســـــجد لبعض الترميمات، فطبقا لمرســـوم خدايار خان الصادر عام (١٢٧٤ هـــ /١٨٥٧ م) قام أفضل فناني وبنائي المدينة بترميم المسجد الجامـــع. ومن أجل إتمام هذه الأعمال الترميمية بالمسجد استخدم خدايار خان ربع الـــوقـــف لمدة سنتين، ثم بعد ذلك قام الثري الخوقندى مير حبيب بترميم المســـــجد وذلـــك عام (١٣٢٣ – ١٣٢٥هـــ / ١٩٠٥ -١٩٠٧).

(شكل رقم ١) مدخل المسجد الجامع في مدينة خوقند بوادي فرغانه

٢- مدرسة مير نربوته بيه: تقع في وادي فرغانة، مدينة خوقند، على الحد الغربي من مقابر مدينة خوقند، شارع أفرورا، تم تشييد المدرسة بأمر من الخان الخوقندي نربوته بيه في عام (١٢١٤هـ / ١٧٩٩م) وذلك طبقا للنص الموجود على صرح البوابة وروايات كبار السن المعمرين من الناس، تعتبر مدرسة مير نربوته بيه واحدة من أول الآثار المعمارية وذات أهمية كبرى في تاريخ وعمارة أوزبكستان كمثال على الاحتفاظ بعظمة الشكل وبساطة التخطيط. وكانت المدرسة، هي بناء تقليدي من حيث التخطيط والحجم ذو مساحة مستطيلة (٧٢ x 52م) تتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع إيوانات تلتف حولها حجرات خلاوي الطلبه من جميع الاتجاهات من طابق واحد، وتشتمل المدرسة على أبراج اسطوانية في الزوايا.

على الرغم أن هذه المدارس قد صممت وفق الطراز الإيواني الغالب على عمارة المدارس الإسلامية بصفة عامة، إلا أنها عولجت بطريقة محلية خاصة مما أكسيها طابعاً معمارياً وفنياً متميزاً، ليس فقط في آسيا الوسطى فقط، بل في عمارة المدارس الإسلامية على الإطلاق.

(شكل رقم ٢) مدرسة مير نربوته بيه في مدينة خوقند بوادي فرغانة

٣ – قصر خديار خان: تم بناء القصر على تل مرتفع بوادي فرغانة، مدينة خوقند، شارع سوفيتسكايا، يعتبر القصر واحدا من أهم وأضخم قصور آسيا الوسطى القليلة خلال القرن ١٣هـ / ١٩م، وقد أنشئ القصر بأمر من حاكم مدينة خوقند الأمير خدايار خان، وذلك في الفترة من (١٢٨٠ – ١٢٨٧ هـ / ١٨٦٣ – ١٨٧٠م). كان قصر خدايار خان قديما يشغل مساحة مساحة مستطيلة أبعادها(١٣٨ x 65م)، ويشتمل القصر على ١١٤ حجرة بعدد سور القرآن الكريم، وقسم إلى قسمين من حيث الوظيفة، منطقة احتفالية رسمية، وأخرى سكنية ،وهذا يتضح في الشكل التالي:

(شكل رقم ٣) قصر خدايار خان في مدينة خوقند بوادي فرغانه

حيث جاء التخطيط العام للقصور في منطقة آسيا الوسطى بعضها عبارة عن مجموعة من المباني المختلفة الوظيفة، والتي نفذت داخل سور القصر، وتكون على مسافات واسعة بين المباني وبعضها، مثلما نرى في قصر ستار ماهي خاص

ببخارى، بينما بعض القصور الأخرى جاء تخطيطها العام عبارة عن مجموعة مـــن الأفنية التي تشتمل على وحدات معمارية مثلما نرى في قصر خدايار خان الـــذي يتكون من سبعة أفنية كل فناء يصل إلى الآخـــــر، وكذلك نجد قصـــــر نور الله باي (١٢٨٢ – ١٣٣٠هـــ / ١٨٦٥– ١٩١٢م) يشتمل على أربعة أفنية مختلفة كل فناء به مجموعة سكنية لكلا منهما وظيفة.